ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

— ٢ —

(ملاحظة — الكلام ليس شخصياً وكل ما فيه متخيل ولا حقيقة لذات الثوب الأرجوانى)

لم يكن العزم أن أكتب هذا الفصل ولكن « الرسالة » — جزاها الله خيراً — أبت إلا أن تستزيدنى فوضعت الرقم (١) تحت عنوان الفصل السابق ، فصار لا بد أن أكتب الثانى — أو اللاحق — وإلا عدنى القراء مقصراً أو مغالطاً أو فاتراً ، وأنا أقصر فى الأغلب عن الغاية أو دونها ؛ وقد تغرينى طبيعة الحياة أو مطالب الدنيا بالمغالطة ، ولكنى والله لست بفاتر — والعياذ بالله ! — وإنى لحريص فى العادة على هدوء المظهر واتزان الأعصاب ، ولكن فى جوفى ناراً «أحر نار الجحيم أبردها» كما يقول المتنبى رحمه الله — وكان فى عوننا — فقد كان يجيد المبالغة . وما أظن بذات الثوب الأرجوانى إلا أنها تحس نارى هذه وتجد لفحها وإن كان بينى وبينها بعدان : بعد طريق وبعد منال . وإذا لم يكن هذا هكذا فسلها بالله لماذا تلبسه لى !... أليست تلبسه لأنها تعلم أنه حبيب إلى ؟ ... ومن أدراها وأنا لم أقله بلسانى ولم أفض إلى أحد بسر قلبى ؟ . . . وما أحسب أحداً سيزعم أنها رأت فىّ مشابهَ من ثيران أسبانيا فهى تخايلنى لتهيجنى بهذا اللون ؟ !... ومما يدل على العمد فى لبس هذا الثوب أنها تبدو ضاحكة مشرقة المحيا فى كل ما تكتسى خلافه ، فاذا ارتدت الأرجوانى قطبت وزوت ما بين عينيها وتكلفت التجهم الشديد . وليس فى الثوب أو لونه أو تفصيله أو حسن انسجامه على بدنها الرخص ما يدعو إلى الانقباض . وإن فى كثرة لبسها له لدليلاً على الرضى عنه ، ولو كانت تشعر بشىء من الضيق للبسه لما أكثرت من ارتدائه ، ولكنها على عادة جنسها تفعل الشىء تبنى به رضى رجل معين ثم تذهب تغالط وتدعى غير ذلك . ومن هنا هذا العبوس التى لا تحسنه . وإنى لأعرف أنها قرأت بعض كتبى فقد رأيت معها « خيوط العنكبوت » — عرفته من غلافه وما عليه من الرسم ، ولكنى أظنها لم تقرأ ديوانى لأنه قديم جداً ولأنه نفد من زمن طويل ، ولو قرأته لوجدت فيه هذا البيت :

لا يحسن التعبيس أبلجُ واضح ضحك الجمال بوجهه وأضاءا

ولكانت خليقة أن تكف بعد ذلك عن عبوس لا تتقنه ؛ ولشد ما أتمنى أن أعود إلى النظم ولكن هيهات ، فما تحركنى الحياة كما كانت تفعل ، ولو كان شىء يردنى الى الشعر لردنى هذا الثوب.. أأقول الثوب ؟ . يا للمغالطة ! . أترانى لو رأيت الثوب منشوراً فى الشرفة ولم تكن هى فيه أكنت أحفله أو أباليه ؟ . كلام فارغ ! . ويحسن بى أن أدع الثوب وأن أكف عن ذكره فما أعرف له — بمجرده — قيمة . وإنها لجميلة فى الأبيض والأخضر والأزرق والبنفسجى والوردى ، وفى الطويل والقصير ، وفى الخفيف والكثيف ، وفى المباذل والملاهل . ولكنى أحب أن أجرب سلطانى عليها فأزعم أن الأرجوانى هو الثوب الأثير عندى . ثم إن صورة المرأة فى اللحظة التى تقع فيها من قلب الرجل هى التى تعلق بذهنه وتظل حاضرة ماثلة لا تبرحه ولا تنى تجور على غيرها من الصور ولو كانت أبرع وأفتن . وهذا فيما أعتقد — تعليل ما أراه من استبداد هذا الثوب الأرجوانى بنفسى وخواطرى ، فلتلبس ما شاءت غيره ولتطمئن على حسنها فلن تكون إلا جميلة ساحرة

وأحسب أن اتزانى المألوف قد خدعها أول الأمر ، وأن ابتسامتى التى أرسمها على وجهى — بالألوان — هى التى حيرتها فما هكذا يكون المحب الولهان والعاشق الدنف فيما تصف الكتب والروايات التى لا شك أنها قرأتها . وأين مظاهر الصبابة وآيات الوجد ودلائل الخبل الذى يورثه الحب ؟ أين الدموع الغزار التى لا تفتأ تفيض بها الجفون القريحة حتى يصبح المرء فى بركة من العبرات ؟ ؟ أين السهد الطويل الذى يترك الوجه مصفراً والجسم مطحوناً مهدوداً ؟ ؟ وأين الزفرات الحرى والشهقات العميقة التى تخرج من أخمص القدم ؟.. لا يا ستى . . لست من هذا الطراز وما أراك إلا مثلى تحسنين أن تضبطى عواطفك كما يضبط المهندسون فيضان هذا النيل المغلم بالسدود والخزانات الضخمة ؛ ثم إن الحب جميل لا شىء فيه يوجب الحزن والكآبة ، وهو

يملأ النفس حياة لا موتاً ، وينضر الروح ولا يذبلها ، وهو سبب عمران هـذا الكون فكيف تخرب من جرائه نفس انسان ؟ وهو مبعث الوحى ومصدر الالهام وسبب الانتاج على العموم ، فكيف يجيء بالانقباض والعقم ؟.. لا يا ستى . . أقول لك مرة أخرى اضحكى . . اضحكى واتركى هـذا القطوب الذى لا يوائم الجمال والصحة

ولم أرقط كمشيتها فى المشى ... فيها دبة القوى الشاعر بقوته أو المعتز بها ؛ وقد تبد لى أحيانا كأنها تدب كما يدب الصبى حين يذهب عنك منيظا محنقاً .. ولا داعى لغضبها أو حنقها ... وأين هذا الداعى وهى واقفة وحدها فى الشرفة تطل منها على الطريق ؟ لا بد أن يكون الداعى شيئاً فى رأسها أو نفسها هو الذى يحملها على هذه اللفتة السريعة العنيفة التى لا مسوغ لها مما حولها ، إذ كان لا شيء حولها إلا الهواء والا هالة هذا الحسن . . . وليتنى أستطيع أن أنفذ إلى موضع التفكير أو الاحساس فأطلع على هذا الباعث الخفى ! فليس أفتن ولا أسحر من حركات النفس فيما وراء الوعى . وأكبر الظن أنها هى لا تعرف ماذا يلفتها أحياناً على هذا النحو العنيف وإن كانت تحسب نفسها عارفة مدركة . ولو أنك قلت لها إن لفتتها هذه فيها عنف وسألتها عن علته لأنكرت ولكان الأرجح أن يسوءها منك ذلك .

على أنى لا أحب أن يتوهم القارئ أن مشيتها عنيفة أو أن فيها ما يعاب — حاشا لله — وإن لها لخطرة تجعل أهون حركة لها رقصاً . ومن النساء من تمشى بتدبيها كأنما تدفعهما أمامها . ومنهن التى تتخلع وتتموج وتتقصع — تكأناً أو طباعا — كأنما لا يمسكها شيء ، أو التى تطول وتقصر فى مشيتها والتى ، تلوح بذراعيها فتزيدها طولاً — إلى آخر ذلك إن كان له آخر — ولكن ذات الثوب الارجوانى حين تبرز لى فى الشرفة صباحا — على سبيل التحية — وهى لا تزال فى منامتها ، تنساب كالماء الرقراق ، فليس خطوها خطواً وإنما هو تموج . وإنى لأراها ماشية من هذا البعد فأذكر بيتاً لابن الرومى هو قوله فى وصف صانع الرقاق :

ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

ولا رقاق هناك ولا حجر ولا ماء تنداح فيه الدوائر ، ولست أذكر البيت لأن هذا وقت الصباح أى وقت الشعور بالجوع ، وإنما أذكره لأنى أحس — بعينى وبقلبى معاً — أن حركة المشى تبعث فى جسمها اللين اضطرابا خفيفا كاضطراب الماء حين يصافحه النسيم الوانى ؛ ويخيل إلى أن جسمها كله — حين تخطو — تتعاقب على بشرته الرقيقة موجات فى إثر موجات تطير العقل وتزدهف اللب . ولا أدرى أهذا خيال أم هو الحقيقة ، ولكن الذى أدريه أنه بعض ما للمرأة من سحر . فقد ترى رجلا قده أعدل من قد المرأة ولكن مشيته لا يكون فيها هذا التموج ، ولا يمكن أن تحدث الحركة فى جسمه — أو جلده — مثل هـذا الاختلاج الخفيف الذى هو بعض سحر المرأة . واللين من خصائص الأنوثة — والنعومة والرقة والطراوة أيضاً — وليس أقبح ولا أبعث على النفور من المرأة المسترجلة كما ليس أقبح ولا أدعى الى الزراية من رجل تغلب عليه صفات الأنوثة ، وتخطىء فيه مظاهر الرجولة ومعانيها

وفتاتى تنهض مثلى فى البكرة المطلولة — أو أنا هكذا أتخيلها — خفيفة غير متثاقلة — فانها شيء صغير دقيق يخيل إلى أن فى وسعى أن أطويها وآكلها بعظامها — وتدفع باب الشرفة فأنتبه على الصوت — وتقف حاسرة الرأس متهدلة الشعر — وهل يغطى مثل هذا الشعر الذهبى ؟ — عارية الذراعين ، ثم تتهادى الى الحافة وتطوى ذراعيها عليها وتدير عينها فى مجالى الحياة التى طلع عليها يوم جديد . فتبارك الله خالق هذا الوجه الصابح ومرقرق كل هذه الغضارة والنضارة فيه ! . وما أكثر ما وقعت على عينى عينها وأنا أحدق فيها من حيث أحسبها لا تراني ! ولشد ما أشعر ، حين يحدث ذلك ، بفتنة هـذا اللحظ ، وما أصبحت على وجهها مرة إلا أحسست أن من حقى أن أستقبل يومى بصدر منشرح وقلب مستبشر مطمئن ، وما رأيتها إلا كان ظهورها إيذاناً لى بالاضطرام والفورة ، فيكون حسبى بعد ذلك أن أعالج نفسى حتى أردها إلى السكون وأفىء بها إلى الهدوء ؛ وليس هيناً أن ترغم اليد المرتعشة على الثبات ، والأعصاب المضطربة على الاتزان ، والعين المحملقة الزائغة على الفتور المألوف ، والقلب الذى يعلو ويهبط كأنه لعبة « اليويو » على العود إلى انتظام الدق واعتدال الخفق ؛ والساقين

المتخاذلتين على الصلابة والتماسك ، والنارَ التي تتدلع في الأحشاء على الخمود . . . كلا ليس هـذا بالهين . . ولكني رضت نفسي على القدرة عليه ، فلأرادتي الحكم لا لشعوري وعواطفي ؛ وعسير جداً أن يبدو على وجهي شيء مما يضطرب به جناني ويجيش به صدري ؛ وإن جوفي ليكون كالبركان الفائر أو البحر الهائج ، وتنظر إلى وجهي وتسمع كلامي وتتأمل حركاتي وإشاراتي فلا يخالجك شك في أني أفرغ الناس قلباً وأخلاهم بالاً ، ولم لا ؟... إن ما يدور في نفسي شيء يعنيني وحـدي وليس من حق غيري أن يحيط به ويطلع عليه فانه سري ؛ ولا من الرجولة أن أعرضه على الناس كأني ألتمس العون أو العطف منهم . وماذا يبقى لي مما يسعني أن أقول إنه « لي وحـدي » إذا كنت أبيح الناس ما في صدري وأشركهم في أمري ؟.. ولست أستثقل أو أستسخف شيئاً كقول الشاعر — وأظنه أبا فراس —

فيا حسرتا ! من لي بخل موافق أقوله بشجوى مرة ويقول

فان هذا ضعف وحماقة . والقول بالشجو يفضح ولا يجدي ؛ وإذا كان في البث ترفيه ، فان الانتصار على النفس أجل وأكرم وأكبر متعة أيضاً ؛ والبث ثرثرة تليق بالمرأة ولا تليق بالرجل . وماذا ينفعك أن يعرف صاحبك أنك تحب أو تكره ، أو أنك غاضب ساخط أو راض منتبط ؟ . . . ماذا يستطيع أن يصنع لك ؟ . لا شيء ! . وأجـدى من ذلك عليك أن تعالج أنت نفسك وأن تردها على مكروهها — إذا احتاج الأمر — وأن تحتفظ باعتدال المزاج وهدوء التفكير واستقامة النظر ودقة الوزن وحسن التقدير . ومن كان لا يملك نفسه فأحر به ألا يملك غيره . والحب حرب بينك وبين المرأة ، فاحرص على أن يبقى زمامك في يدك وإلا ركبتْ منـك جواداً مسرجا ملجماً تركضُه حيث تشاء هي وحدها . وليس أطغى من المرأة إذا صار في يدها زمام الرجل

ابراهيم عبد القادر المازني

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد في الخارج ١٥ قرشاً

تراثنا العربي القـــديم

ما يجب لتنظيم إحيائه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان تراث العربية حتى أوائل القرن الماضي لا يزال مغموراً محجوباً في ظلمات المكتبات والمجموعات الخاصة ؛ وكانت المطابع قد ظهرت في أوربا منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وطبعت في رومه بعد ذلك بنحو قرن بعض الكتب والوثائق العربية ، منها : مختصر كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسي (سنة ١٥٩٨) ؛ وفي القرن السابع عشر طبعت في مدينة ليدن التي ما زالت منذ أربعة قرون مركزا هاماً لنشر الآثار العربية ، عدة مراجع عربية تاريخية ، منها : « تاريخ المسلمين » لابن العميد (المكين) (سنة ١٦٢٥) ، وكتاب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » ، لابن عربشاه (سنة ١٦٣٦) ، وكتاب مختصر تاريخ الدول لابن العبري (سنة ١٦٦٣) ، وظهرت هذه الكتب بالعربية لأول مرة مقرونة بتراجم لاتينية كانت منذ ظهورها مستقى خصباً لمؤرخي الغرب

ولم يظهر في أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر من الكتب العربية سوى طائفة قليلة من الكتب قد لا تعدو عشرات ؛ وإلى أواخر القرن الثامن عشر لم تكن مصر قد عرفت المطبعة العربية ؛ وقد عرفتها لأول مرة في سنة ١٧٩٨ ، حينما وفد نابليون على رأس حملته الفرنسية ، وحمل معه مطبعة عربية كاملة استعملت بالقاهرة لطبع البيانات والأوامر التي كانت تصدرها القيادة العليا ويصدرها الديوان الفرنسي لأهل مصر ؛ وكان في مقدمة الكتب التي أصدرتها هذه المطبعة كتاب عن محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر يضم خلاصة التحقيقات والاجراءات بالعربية والتركية والفرنسية ، وذلك سنة ١٨٠٠

ولما بدأ محمد علي في تنفيذ برنامجه الاصلاحي لم تفته هذه الناحية الهامة من تعضيد الحركة الفكرية والثقافية ، فأنشأ في سنة ١٨٢١ مطبعة بولاق الأميرية ، وعني باعدادها وتجهيزها عناية عظيمة ، فكانت أول وأعظم صرح للطباعة العربية